International Journal of Innovation and Applied Studies
ISSN 2028-9324 Vol. 18 No. 4 Dec. 2016, pp. 1079-1096
© 2016 Innovative Space of Scientific Research Journals
http://www.ijias.issr-journals.org/

أبحاث في التاريخ والآثار الإسلامية بالمغرب الشرقي: تازة، تاوريرت، دبدو والنواحي

[Researchs in Islamic History and archaeology in Eastern Morocco: Taza, Taourirt, Debdou and region]

الصغير مبروك

أستاذ التعليم العالي بالمعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث بالرباط

Saghir MABROUK

Professeur et enseignant-chercheur, Institut National des Sciences de l'Archéologie et du Patrimoine, Rabat, Maroc

Copyright © 2016 ISSR Journals. This is an open access article distributed under the ***Creative Commons Attribution License***, which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided the original work is properly cited.

ABSTRACT: This is a story of research synthesis and Islamic archeology that we occurred on a geographical area North East Moroccan Taza, Debdou, Taourirt and the region. This is the first such research in Islamic archeology in this part of Morocco. Thus, this research fits into a larger perspective. It is the establishment of an archaeological map of the area, itself part of a vast archaeological program throughout Morocco.

We evoked at first, the most famous monuments of the city of Taza, dating back to the Middle Ages namely religious architecture represented by the Grand Mosque and other monuments and defensive architecture through its ramparts and bastion.

The second part of this article will focus on the medieval archaeological site of the city of Debdou and its components: the qasba and the mosque and the medieval town of Qasba Taourirt and the most important historical monuments of the city. We approach then the other historical monuments, little known which are very important on the architectural and heritage level, the medieval Qasba called "Merada" near the town of Guercif and Qasba Alouite called "Msoun", to 25 km east of the city of Taza on the national road linking Fez to Oujda.

In this research special attention was given to the cartographic, graphic and photographic documentation.

KEYWORDS: Islamic History, archaeology, Eastern Morocco.

1 مقدمة عامة :

الموضوع الذي تم اختياره هو ثمرة تحريات وأبحاث أثرية شملت منطقة المغرب الشرقي من مدينة تازة إلى مدينة تاوريرت ونواحيها أي غرب مدينة وجدة.

ويشمل هذا المقال في شطره الأول الأبحاث الأثرية حول مدينة تازة العتيقة خلال العصور الإسلامية والتي كانت موضوع أطروحتنا لنيل الدكتوراه بجامعة السربون[1] باريس. أما الشطر الثاني من المقال، فيشمل الأبحاث والتحريات الأثرية التي نقوم بها منذ فترة، والتي تهم المجال الجغرافي الرابط بين مدينتي تازة ووجدة، أي دبدو، تاوريرت، العيون سيدي ملوك ونواحيهما. وهي أول دراسة في مجال الآثار الإسلامية تهم المنطقة.

[1] *-Saghir Mabrouk ; La ville de Taza : Recherches d'Histoire d'Archéologie Monumentale, et Evolution Urbaine, Thèse de Doctorat de l'Université de la Sorbonne Paris I , IV volumes 1992.*

Saghir Mabrouk ; l'apport des textes juridiques dans l'éclaircissement de l'histoire urbaine de la ville de Taza in l'urbanisme dans l'occident musulman au Moyen Age, aspect juridique, Casa de Velasquez, Madrid 2000, pp : 233-242.

- وانظر أيضا مبروك الصغير، التطور العمراني للمدينة العتيقة لتازة : دراسة تاريخية وأركيولوجية ضمن تازة وباديتها من خلال الارشيفات الاجنبية والتراث الوثائقي المحلي تنسيق لحسن اوري مطبعة انفو برانت فاس 2014- ص: 85-106

لقد مكنت هذه التحريات من الوقوف ولأول مرة على مواقع ومعالم أثرية مختلفة المصادر والوظائف أظهرت لنا مدى أهمية المنطقة من الناحية التاريخية والأثرية. كما تم جرد ووصف ودراسة عدة مواقع ومعالم أثرية إسلامية، نقتصر في هذه الخلاصة على البعض منها، لتكون بذلك أولى المعطيات المادية لدراسة المنطقة، دراسة تغني تاريخها الحافل، الذي لا يزال الكثير من جوانبه مدفونا.

مجال الدراسة ضمن خريطة المملكة.

الخريطة الجغرافية للمغرب، إنتاج شركة اديسوفت، الأحباس، الدار البيضاء، بدون تاريخ

2 الأبحاث الأثرية بمدينة تازة:

شملت هذه الأبحاث كل معالم المدينة ونسيجها الحضري منذ نشأتها إلى بداية القرن العشرين. وتعتبر مدينة تازة التي تقع غرب مدينة وجدة بحوالي 200 كلم من بين أهم المدن المغربية التي انشئت خلال العصور الوسطى، فقد عرفت على عهد الدولة الموحدية(القرن السادس الهجري/12م) برباط تازة، وبقي هذا الاسم مرتبطا بها إلى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي نظرا لما تمتاز به من موقع استراتيجي هام.

وتعتبر العمارة الدينية والعسكرية بمدينة تازة من أهم التراث المعماري في المغرب بل والعالم الإسلامي، وهذه المعالم متعددة ومتنوعة، منها المسجد الجامع والمساجد الصغرى والمدارس والزوايا والأضرحة. أما العمارة العسكرية فهي متنوعة و من أهم نماذج وسائل الدفاع في الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط.

2.1 العمارة الدينية :

أ- المسجد الأعظم :

تشتمل مدينة تازة كباقي المدن الإسلامية العتيقة على مسجد جامع كبير، وهو في الواقع أجمل وأهم معلمة تاريخية بالمدينة ومن بين المعالم الدينية الشهيرة في العالم الإسلامي.

جزء من قاعة الصلاة بالمسجد الأعظم(ارشيف الصغيرمبروك)

- انظر : الصغير مبروك ، المسجد الاعظم الموحدي بتازة، ضمن ندوة الذكرى الالفية للمسجد الاعظم بسلا، نشر وزارة الاوقاف والشؤون الاسامية- مطبعة الكرامة- الرباط 2004 ص155-166

يقع المسجد الجامع لتازة في الجهة الشمالية الغربية للمدينة القديمة، غير بعيد عن المركز التجاري ومجاور للأحياء السكنية، وبذلك يكون قد خضع للمنظومة التقليدية كما هو الشأن لمعظم المساجد الكبرى في المدن الإسلامية. وقد لعب المسجد الأعظم بالإضافة إلى وظيفته الدينية دورا إشعاعيا في مجال العلم والمعرفة. فقد كان مركزا ثقافيا بين فاس وتلمسان على عهد بن مرين حيث كانت الحلقات العلمية تنظم داخل بهوه، بل كانت تتخذ فيه قرارات سياسية حاسمة في هذه الفترة، كما دفن في صحنه الكبير السلطان المريني أبو الربيع سنة 710 هـ الموافق لسنة 1370 م.

محراب المسجد الأعظم(ارشيف الصغير مبروك)

إلا أن المصادر التاريخية المكتوبة التي تناولت هذه المعلمة قليلة جدا، حيث لا تتطرق في معظمها لتفاصيل عن معالم المدينة ماعدا بعض الإشارات التي تدخل في إطار سياق سياسي أو اجتماعي عرفته المنطقة.

وقد خص الكاتب بوري ماسلوف (Maslow(B)) [2]في كتابه عن مساجد فاس وشمال المغرب حيزا هاما للمسجد الأعظم، كما خصص هنري تيراس[3] (Henri Terrasse) دراسة شاملة للمسجد.

إلا أنه في إطار دراستنا الأثرية لمدينة تازة عامة والمسجد الأعظم خاصة تناولنا هذه المعلمة بالتفصيل وبرؤية جدية اعتمادا على مصادر تاريخية واكتشافات أثرية جديدة مما ساعدنا على معرفة التطور التاريخي الذي عرفته هذه المعلمة وخاصة على العهدين الموحدي والمريني.

ب- وصف عام للمسجد الأعظم بتازة:

لقد عرف المسجد الأعظم لتازة مرحلتين من البناء: مرحلة على العهد الموحدي، ومرحلة على العهد المريني، ويمثل القسم الموحدي مسجدا مكتمل الأجزاء: بيت للصلاة، صحنان، وصومعة، أما القسم المريني فهو عبارة عن زيادة في اتجاه القبلة ومن أهم الزيادات رونقة وجمالا في العمارة الدينية الإسلامية.

والمسجد الجامع عبارة عن معلمة فخمة تحتوي على 14 اسكوبا وتسعة بلاطات، ويتميز بلاط المحراب وأسكوبه بزيادة السعة عن بقية البلاطات والاساكيب والذي أعطى شكل حرف التاء (T) اللاتيني الذي ثارت حوله كثير من التساؤلات عن نية المستشرفين الذين حاولوا إلحاقه بشكل الصليب وتخطيط الكنائس المسيحية.

[2] -Maslow (b) ; les mosquées de Fès et du Nord du Maroc . Pub de I.H.E.M, LIV Paris

[3] -Terrasse (H) ; La grande mosquée de Taza –Pub de I. H.E.M XXXI, éd d'Art et d'Histoire Paris

القبة المرينية بالمسجد الأعظم(ارشيف الصغير مبروك)

كما يتميز المسجد الجامع بقببه الموازية لحائط القبلة، وخاصة القبة التي تقابل المحراب والتي تعتبر نموذجا للقبب الإسلامية بالعصور الوسطى من حيث الشكل و الزخرفة. اما ابوابه فهي تسعة: إثنان في جهة القبلة وثلاث أبواب جانبية وواحدة في الجهة الشمالية الغربية.

ويشتمل المسجد على صحنين: صحن صغير تساوى مساحته أربعة أساكب، وتحيط به أروقة.

أما الصحن الكبير فهو أكثر سعة وتكاد مساحته أن توازي مساحة المسجد نفسه، اي ساحة كبيرة مغروسة بالزيتون وأشجار البرتقال تتوسطها قبة جميلة ومحراب على جداره الجنوبي الشرقي، مما يفسر أن هذا الفناء كان يستعمل أيضا للصلاة خاصة في فصل الصيف. وللمسجد مرافق وراء جدار القبلة والجهة الغربية، منها حجرة المنبر، وحجرة الإمام، وخزانة للكتب وساحتين صغيرتين محيطتين بأروقة ثم بيتا للوضوء إلى جانب كتاب قرآني، وهذه الملحقات تذكرنا بمرافق مسجد القرويين أو الأندلس بفاس لكن هنا أكثر تنظيما وتناسقا.

وفي الجهة الأخرى من أقصى المسجد، وبالضبط بجانب الصومعة توجد حجرة المواقيت والتي تستعمل الآن كخزانة، أما الصومعة فهي تقع في الجزء الشمالي الشرقي من الصحن الصغير. ويحتوي المسجد بصفة عامة على نقوش وزخارف هندسية ونباتية وخطية تعتبر نموذج لفنون الزخرفة الإسلامية خلال القرنين 13 و14 الميلاديين، بالإضافة إلى بعض الأثاث الداخلي كالثريات الصغرى و الثريا الكبرى، هذه الأخيرة التي تعتبر من أهم وأجمل الثريات الأثرية في العالم الإسلامي.

ت-القسم الموحدي من المسجد الأعظم

في الواقع ليس هناك أي نص تاريخي يؤكد لنا تأسيس المسجد من طرف عبد المومن الموحدي، لكن التحريات الأثرية، وتخطيط المسجد بالإضافة إلى العناصر الهندسية المكونة لهذه المعلمة من عقود وأكتاف، إلى جانب الظروف التاريخية أي حاجة عبد المومن لدعم ديني وبناءه لرباط تازة من أجل تتمة فتوحاته في الشمال، كل هذه العناصر جعلتنا نرجح بأن هذه المعلمة تأسست حوالي 536- 537 هـ الموافق 1141-1142 م والواقع أنه يمكن التفريق، منذ النظرة الأولى، بين البناء الموحدي والزيادة المرينية في المسجد.

فالمسجد الموحدي يشتمل على تسع بلاطات وخمسة أساكب، ذو عقود منكسرة متجاوزة تختلف تماما عن الأقواس المرينية الموجودة بالزيادة وهي من النوع المتجاوز الكامل الاستدارة ثم أن اسكوب القبلة الموحدي الذي كان يقابل المحراب مختلف عن باقي الأساكب، وأكتاف البلاط المحوري مستطيلة يلتصق بجانبها نصف عمود، بل لازالت آثار تاج موحدي ببعض الدعامات التي كانت تقابل المحراب بارزة الى الان.

ومن جهة أخرى فإن أبواب المسجد الموحدي تختلف تماما عن أبواب الزيادة المرينية وخاصة من حيث السعة وشكل العقود، فالأبواب الموحدية للمسجد أقل سعة من مثيلاتها بالزيادة المرينية كما أن المسجد الموحدي كان يشتمل على ثلاث قبب منتظمة على اسكوب المحراب أمام جدار القبلة، وهي خاصية تمتاز بها بيوت الصلاة بمساجد الموحدين.

أما صومعة المسجد الأعظم فهي مربعة الشكل ومبنية بالحجر، وأقدم صومعة موحدية لكن تمتاز ببساطتها مقارنة بأخواتها الكتبية وحسان والخيرالدا.

إن ما يميز مسجد تازة الموحدي كباقي المساجد الموحدية الأخرى هو التخطيط المتكامل(مسجد كامل)، ثم التطابق أو والتقابل بين أجزائه، فالفتحات والأبواب متماثلة بالإضافة إلى أهمية القبب وتنظيمها على طول أسكوب القبلة.

ثم أيضا التقابل في تخطيط الصحون وغيرها من المرافق سواء من الداخل أو الخارج جعلها أكثر انتظاما من المساجد السابقة.

ث-القسم المريني من المسجد الأعظم

أما المسجد المريني او ما يسمى بالزيادة فقد شمل أربع بلاطات ثم ثلاث قبب والأبواب، والملحقات ظهر جدار القبلة والصحن الكبير ثم الثريات، والزخرفة الهندسية والنباتية والكتابات المنقوشة وغيرها...

وتؤرخ هذه الزيادة المرينية بالمسجد الجامع بواسطة لوحة تأسيسية، عبارة عن نقش على رخامة بالخط العربي النسخي الجميل مكونة من 15 سطرا، يشتمل السطر في المتوسط على سبع كلمات ونقتطف منها ما يلي" وابتدئ في مفتتح ربيع الأول في العام المتصل بعام تاريخه وكان الفراغ منه أواخر شوال أحد وتسعين وستمائة 691 هـ..."

ولعل من أهم هذه الإضافات ما هو موجود ظهر جدار القبلة من ملحقات وخاصة الخزانة التي كانت تعتبر من أهم الخزانات بالمغرب والتي حفظت كتاب الشفا للقاضي عياض، وقد أرخت بأبيات شعرية منقوشة على بابها.

الثريا الكبرى للمسجد الأعظم(ارشيف الصغير مبروك)

صورة مقربة للثريا الكبرى للمسجد الأعظم(ارشيف الصغير مبروك)

ومن أهم ما شيده أيضا المرينيون بهذا المسجد الجامع هو الثريا الكبرى والثريات الصغرى، وتعتبر الثريا الكبرى أكبر الثريات التاريخية في العالم الإسلامي وأجملها. فقد ذكر صاحب روض القرطاس بأن المسجد زين بالثريا الكبرى النحاسية التي تزن 32 قنطارا وتحمل 500 كأس أو فنجان، وقد كلفت تلك الأعمال ثمانية آلاف دينار". والثريا الآن يبلغ قطرها مترين ونصف المتر وارتفاعها حوالي أربعة أمتار ونصف المتر. ويملأ داخلها قبة مضلعة أو معرقة ذو ستة عشرة جانبا، كما انها زينت بزخارف نباتية وإطارات ذات نقوش خطية.

وقد نقشت قصيدة شعرية على هذه الثريا تؤرخ لها وتبرز أهميتها الفنية والتاريخية.

ويشتمل المسجد الجامع لمدينة تازة على لوحات رخامية مرينية تؤرخ لبعض المعالم الأثرية الأخرى بالمدينة كالمارستان والزاوية وغيرها.

ولعل أهم ما أبدعه الصانع في هذه المعلمة خلال العهد المريني هو الزخرفة ، سواء كانت ذات أشكال هندسية أو نباتية، أو خطية. اذ تعتبر من أجمل الفنون التي تزخر بها الحضارة المغربية إلى حد أن بعض الدارسين أمثال هنري تيراس(Henri TERRASSE) جعل من زخرفة هذا المسجد فهرس جامع لفن الزخرفة الإسلامية في الغرب الاسلامي.

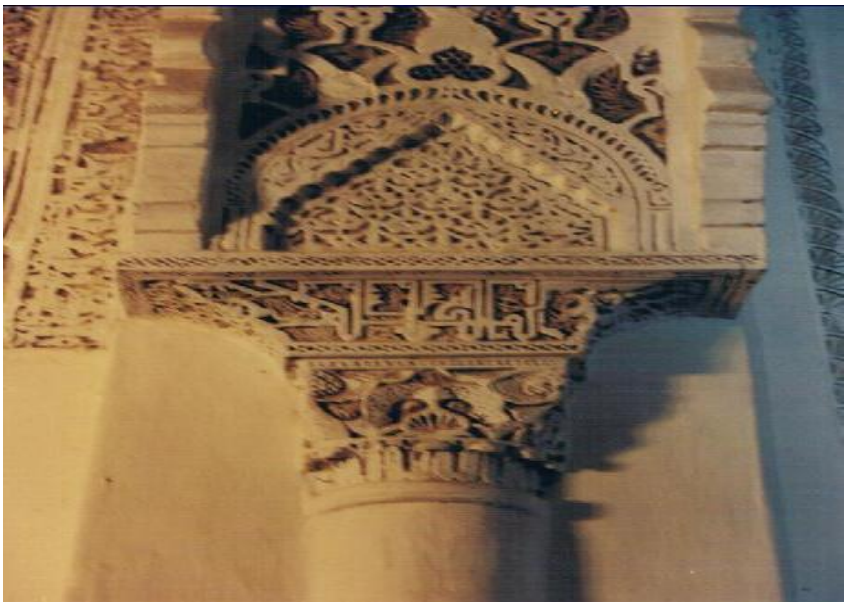

جزء من الزخرفة المرينية بالمسجد الأعظم(ارشيف الصغير مبروك)

ان معظم اشكال الزخرفة الإسلامية استعملت داخل المسجد، فبالإضافة إلى أشكال الأقواس، من المستدير إلى المنكسر إلى العقد الرخوي الى المتعدد الفصوص، إلى الأشكال الهندسية من تظفيرات النجوم المتعددة الأركان إلى الأشكال النباتية من أوراق نخيلية إلى تعرشات (palmette)، وزهيرات وجوز الصنوبر ، كما أن الأوراق قد تكون ملساء مرنة أو متنوعة، ثم هناك أشكال الخط العربي كالكوفي المظفر و النسخي .

كل هذه الأشكال جعلت من هذا المسجد الجامع تحفة فنية رائعة، يضرب بها المثل في سائر العالم الإسلامي.

ج-المساجد والزوايا والأضرحة والمدارس:

ومن بين المعالم الدينية الأخرى التي تحتوي عليها مدينة تازة التاريخية والتي ترجع إلى الفترة المرينية مجموعة من المساجد الصغرى وأهمها مسجد الأندلس الذي يوجد في الجزء الجنوبي للمدينة العتيقة، إضافة إلى مسجد قبة السوق، ومسجد سيدي عزوز رغم سكوت المصادر التاريخية عنها.

أما الزوايا فقد لعبت دورا إشعاعيا بالمدينة وذلك في نشر الدين والمعرفة والدعوة إلى الجهاد والأمر بالمعروف. وتعتبر زاوية النملي المرينية من أقدم هذه الزوايا وتليها من الناحية التاريخية الزاوية الكبشية التي فاق إشعاعها مدينة تازة خلال القرن 16 م.

ومن الأضرحة الشهيرة التي ترجع إلى العهد المريني بالمدينة يمكن الإشارة إلى ضريح سيدي علي بن بري الذي ولد بالمدينة سنة 1126 م وتوفي بها سنة 726 هـ الموافق 1325 وهو عالم من كبار علماء المغرب واستاذ السلطان المريني أبو الحسن، وصاحب عدة مؤلفات منها " مخارج الحروف" و" الدرر اللوامع في أصل مقرأ الإمام نافع".

وتحتوي مدينة تازة على مدرستين تاريخيتين، الأولى تلاصق المسجد الأعظم، والثانية أسسها بنو مرين شأن مثيلاتها بفاس ومكناس وسلا، وتوجد بساحة المشور. وهذه المدرسة ذكرت في عدة مصادر تاريخية وقد عثرنا على مجموعة من اللقى الأثرية التابعة لهذه المدرسة منها لوحة رخامية وقفية تؤرخ للمدرسة ومدى التطور الحضري الذي عرفته المدينة. وكذلك على تاج من الرخام لهذه المدرسة نعتبره من اجمل تيجان العصر المريني(الصورة)

و المدرسة كانت تحتوي على 33 حجرة وقاعة للصلاة بمحرابها يتوسطها صحن صغير محاط بأروقة، كما أن المدرسة كانت تحتوي على طابق علوي يتكون من عدة غرف، أما بابها الرئيسي فهو لا يختلف كثيرا عن أبواب المدارس التاريخية المغربية، وقد نقشت عليه هذه الأبيات الشعرية الجميلة:

لعمرك ما مثلي بشرق ومغرب يفوق المباني حسن منظري الحسن

بناني لدرس العلم مبتغيا بـه ثوابا من الله الأميـر الحسـن

تاج المدرسة المرينية بتازة (ارشيف الصغير مبروك)

وبالإضافة إلى هذه المعالم التاريخية التي تزخر بها المدينة، شيد المرينيون مجموعة من المنشآت العمومية كالمرستان، ومركز تجاري وسط المدينة، ومجموعة من الفنادق وغيرها من المعالم الأخرى كقصر تزغوت الذي هدمه بنو عبد الواد في إحدى حملاتهم على المدينة.

2.2 العمارة العسكرية*:

تشتمل مدينة تازة على عناصر معمارية دفاعية مهمة كمثيلاتها في المدن التاريخية المغربية، إلا أنها تتميز عن غيرها من المدن الإسلامية بأهمية هذه العناصر وتنوع تقنياتها وأساليب دفاعاتها، مما جعل منها نموذجا فريدا من نماذج فن العمارة العسكرية في المغرب.

أسوار مدينة تازة (ارشيف الصغير مبروك)

**Plus de détaille voir :*
Saghir Mabrouk ; la fortification médiévale la ville de Taza, in mille Anôs de fortifaçoes na peninculo Iberia et no Maghreb, Ed, Calibri, Lisbonne, 2001

البرج الكبير المسمى البستيون بتازة (ارشيف الصغير مبروك)

فبالإضافة لموقعها الاستراتيجي والجغرافي المحصن طبيعيا خاصة من الجهة الشمالية والغربية، تحيط بالمدينة أسوار سميكة ثنائية وثلاثية في بعض الأحيان ومدعمة بأبراج متنوعة الأشكال أهمها البرج الملولب والحصن الكبير" البستيون" الذي أسسه أحمد المنصور الذهبي خلال القرن 16 م وذلك في خضم الصراع السعدي التركي بالجهة الشرقية للمغرب.

ويحيط بالسور الجنوبي للمدينة خندق يصل عمقه إلى اكثر من 10 أمتار. وكان هذا الخندق يملأ بالماء أثناء الحصار ليكون حاجزا مائيا يمنع المهاجمين من اقتحام المدينة أو يعرقل على الأقل زحفهم إليها، وهذا الخندق يشبه إلى حد كبير خندق قلعة دبدو المرينية شرق المغرب.

وتتميز مدينة تازة العتيقة بكثرة أبوابها، وهذه الأبواب نوعين: أبواب خارجية وأبواب داخلية.

أما الأبواب الخارجية فتعتبر من أقدم المعالم التاريخية، وهي في مجملها معاصرة لبناء الأسوار وتتميز بتخطيطاتها الدفاعية ومواقعها الاستراتيجية، و أهمها باب الجمعة الفوقية و باب الجمعة التحتية و باب الريح و باب القبور ... أما الأبواب الداخلية والتي كانت مهمتها أمنية من الدرجة الأولى، بحيث كانت تفتح في الصباح وتغلق مع غروب الشمس، فمنها من اندثر ومنها مازالت أطلاله شاهدة إلى الآن كباب الشريعة ، باب الزيتونة، باب الملاح...

2.3 بعض المعالم التاريخية الأخرى:

من أهم ما تميزت به مدينة تازة خلال العصر الوسيط المنشآت المائية. فكل المصادر التاريخية المكتوبة منها أو الشفوية، وكذلك المعطيات الاركيولوجية والأسماء الجغرافية ا(لطبونيميا) أكدت على أهمية الماء بالنسبة للمدينة وما لعبه من دور فعال في تطورها تارة وفي خرابها تارة أخرى.

فقد اشتهرت المدينة بمائها العذب وبساقيتها الشهيرة(ساقية غياثة) والتي كانت محل صراع متواصل بين أهل المدينة وأهل البادية خلال العصر الوسيط. وقد كان الماء يصل إلى المدينة عبر هذه الساقية ثم يتفرع إلى ثلاث سواقي: ساقية الرياض الكبير، ساقية القصبة وكانت هذه الساقية تغدي البيوت والمساجد والحمامات والمراحيض العمومية والنفورات. كما أقيمت على هذه الساقية مجموعة من الرُحى لطحن الحبوب وحدائق غناء داخل الأسوار وخارجها.

هذه نظرة موجزة عن المعالم التاريخية والأثرية لمدينة تازة العتيقة التي قمنا بدراستها دراسة تاريخية وأثرية انطلاقا من الوثائق التاريخية والمعطيات الأثرية.

3 موقع الأثري لدبدو:

تقع دبدو على مسافة 160 كلم جنوب غرب مدينة وجدة. ويحتل موقع هذه المدينة الصغيرة أهمية استراتيجية وطبوغرافية كبيرة، مما جعل منها قلعة حصينة صعبة الاختراق. وإذا كانت المصادر التاريخية المكتوبة التي تؤرخ لموقع دبدو قبل القرن 13 م تكاد تكون منعدمة فإن أواخر القرن 14 م عرف عدة إشارات لهذه المدينة لما بدأت تعرفه من اهمية اقتصادية وعسكرية وتركيبة سكانية مهمة .

الجزء الجنوبي لأسوار قصبة دبدو بجانب االخندق(ارشيف الصغير مبروك)

الخندق و أحد الأبراج في حالة خراب(ارشيف الصغير مبروك)

القبب المسماة الإدريسة داخل قصبة دبدو(ارشيف الصغير مبروك)

قبة فم الواد خارج مدينة دبدو(ارشيف الصغير مبروك)

قطعة رخام مرينية: جزء من بقايا مسجد القصبة بدبدو(*ارشيف الصغير مبروك*)

أصبحت دبدو في بداية القرن 15 م إمارة مرينية مستقلة بذاتها، وحكمها زعيم محلي المسمى موسى بن حمو ثم أبناءه من بعده من سنة 1430 إلى سنة 1563 م.

وإذا اعتمدنا التقسيم الجغرافي (الطبوغرافي) وكذا التاريخي، فيمكن تقسيم دبدو إلى ثلاث مواقع أثرية مهمة:

1- القصبة
2- أهل دبدو
3- أهل المصلى بالإضافة إلى الملاح.

ويمكن تلخيص هذه المواقع في موقعين : دبدو العليا وتعني القصبة، ودبدو السفلى، وتعني المدينة الحالية.

وقد ركزت التحريات والأبحاث الأثرية أساسا على موقع القصبة الأثري نظرا لأهميته التاريخية والأثرية، إذ تعتبر هذه القصبة من أقدم المآثر التاريخية الموجودة بالمنطقة.

تقع هذه القصبة المعروفة عند أهل المدينة بقصبة بني مرين على هضبة شديدة الانحدار، ويحيط بها من الناحية الشرقية والجنوبية خندق يفوق عرضه 10 أمتار ويصل عمقه إلى 15 م.

وأسوار هذه القصبة والأبراج المدعمة لها قد خربت في مجملها سواء بسبب تدخل الإنسان الذي استعمل مواد بناءها، أو بسبب تأثيرات الجو من ماء وحرارة. وإذا كانت الأبراج قد خربت واندثر بعضها فلازالت آثار أساستها ظاهرة للعيان ولازالت أسماءها خالدة في أذهان سكانها كما هو الشأن لبرج أجرطيط وبرج بركون...

كما أن القصبة كانت تحتوي على ثلاث أبواب على الأقل أهمها باب تيمزلفت.

أما داخل القصبة فلا زال يحتضن المسجد الجامع بصومعته الشامخة وبعض القبب الجنائزية والتي تشبه إلى حد كبير قبب بني مرين بمدينة فاس.

لكن الملفت للانتباه حقا هو وجود أسماء لمعالم تاريخية مندثرة بقيت خالدة في أذهان ساكنة المدينة، كالديوان، الحمام...

بالإضافة إلى الأبحاث الأثرية بدبدو شملت التحريات منطقة الكعدة (جنوب دبدو) حيث اكتشفنا بعض المواقع الأثرية يطلق عليها الآن اسم قلع بني مرين كقلعة خزرون، قلعة قلب الثور، قلعة القرن وغيرها.

4 القصبة الأثرية تاوريرت:

المصادر التاريخية التي تؤرخ لقصبة تاوريرت قليلة جدا، وحتى الموجودة منها لا تشفي غليل الباحث، بحيث لا نجد أي وصف دقيق لهذه المعلمة إلا من بعد الإشارات التي تندرج في سياق حدث سياسي أو عسكري هم المنطقة الشرقية للبلاد.

ومن بين مصادر القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي الجغرافي ابن حوقل الذي ذكرها في كتابه صورة الأرض تحت اسم زا.

" ومن يوم من تبريدا نجد المدينة الصغيرة زا وهي تقع على واد كبير تجري مياهه عبر الصحراء وتساق إلى بيوت السكان..."[4] وخلال القرن الموالي أي الحادي عشر الميلادي نجد لها إشارة عند أبي عبيد الله البكري[5] تحت اسم كدية تاوريرت، أما الإدريسي في كتابه نزهة المشتاق فأشار إليها كمدينة لطيفة صغيرة، تطل على نهر عظيم يشق أرباضها ويخترق ديارها[6] ولم يتضح تاريخ القصبة إلا خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين (6 و7 هـ)، وذلك في خضم الصراع الطويل بين دولة بنو مرين ودولة بنو عبد الواد بالمغرب الأوسط حيث أصبحت مدينة تاوريرت مسرحا دائما للمعارك بين الدولتين.

ونظرا لأهميتها الاستراتيجية أمر السلطان المريني يوسف بن يعقوب ببناء حصن تاوريرت سنة 695 هجرية بعدما طرد من جانبها الشرقي عامل يغمراسن ابن زيان العبد الوادي. وقد جاء عند ابن ابي زرع صاحب الروض القرطاس بخصوص هذا البناء ما يلي: " ثم أخذ في بناء الحصن فابتدأ ببناء سوره في أول يوم من شهر رمضان من سنة خمسة وتسعين المذكورة ففرغ من تشييده وبناءه وركبت أبوابه مصفحة بالحديد وذلك يوم الخامس والعشرين من شهر رمضان ، فكان رحمه الله يصلي الصبح ثم يقف على بناءه بنفسه ثم رجع إلى رباط تازة، فعيد عيد الفطر على وادي ملوية بعد أن أسكن بحصن تاوريرت المذكور قبيل بني عسكر وقدم عليهم أخاه الأمير أبا يحيا..."[7]. وتوالت الأحداث واستمرت الغارات على المدينة مما أدى إلى خرابها عدة مرات ، كما أعيد بنائها باستمرار من طرف السلطانين المرينين أبو السعيد وأبو الحسن.

وفي بداية القرن العاشر الهجري أي السادس عشر الميلادي زار الحسن الوزان[8] المعروف بليون الإفريقي، مدينة تاوريرت وسجل في كتابه وصف إفريقيا " أنها " مدينة قديمة بناها الأفارقة على تل مرتفع قرب نهر زاغ... مدينة متحضرة آهلة بالسكان وتحتوي على نحو 3000 كانون، وعلى قصور جميلة ومساجد مبنية بالحجر الكلسي.." ويضيف الوزان أنه وجدها خالية موحشة وأسوارها وأبراجها وبيوتها قائمة سليمة لم ينهدم منها غير السقوف وذلك بعدما هجرها سكانها إلى ندرمة بالمغرب الأوسط.

وهكذا فقدت تاوريرت أهميتها واستراتيجيتها العسكرية التي كانت تتميز بها من قبل وانتقلت الريادة إلى مدينة دبدو التي تكونت بها إمارة مرينية علا شأنها بزعامة اميرها موسى بن حمو.

وخلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين ستعرف قصبة تاوريرت مرحلة جديدة من تاريخها، فقد أعيدت لها مكانتها الاستراتيجية العسكرية والتجارية وأعيد بنائها وترميم بعض أجزائها من طرف السلطان مولاي إسماعيل سنة 1680 م . ومنذ ذلك الحين أصبحت وإلى الآن تعرف بقصبة مولاي إسماعيل. وخلال القرن التاسع عشر الميلادي عين عليها السلطان محمد بن عبد الله أحد أكبر شيوخها من أهل أحلاف وهو بوزيان الشاوي.

قصبة تاوريرت: السور الغربي و الأبراج (ارشيف الصغير مبروك)

[4] أبو القاسم ابن حوقل، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979 ص 83.

[5] أبوعبد الله البكري: المعرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، مكتبة أميركا والشرق، 1965.

[6] الشريف الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة 1994.

للمزيد من التفاصيل انظر: مبروك الصغير تاوريرت من خلال المصادر التاريخية والمواقع الاثرية، ضمن ندوة تاوريرت، واد زا القصبة، التاريخ والمجال والتنمية، نشر فريق البحث في الكتابة التاريخية وتقنيات الاعلام والتواصل و تنسيق عبد الحميد الصنهاجي ومحمد استيتو، مطبعة الرباط، 2008، ص: 11-26

[7] ابن أبي زرع الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس دار المنصور الرباط 1972 ص385.

[8] الحسن الوزان، وصف إفريقيا ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الرباط 1980 ص 272.

قلاع بني كلال بتاوريرت *(ارشيف الصغير مبروك)*

مسجد بوزيان الشاوي بتاوريرت*(ارشيف الصغير مبروك)*

وفي بداية القرن العشرين وبعد احتلال مدينة وجدة من طرف الفرنسيين استسلمت المدينة سنة 1910 بعد مقاومة شرسة وعنيفة للاستعمار الفرنسي، فخطت المدينة الجديدة على الهضبة المجاورة للقصبة وهي ما تعرف الآن بمدينة تاوريرت.

تعتبر قصبة أو قلعة تاوريرت من أهم القلع وحصون المغرب الشرقي فهي تمتاز بموقعها الاستراتيجي إذ تتربع على تل عالي تشرف من الناحية الشمالية على نهر زا الدائم الجريان ومن الجهات الأخرى على المناطق الزراعية المجاورة لها وبذلك تؤمن أفضل الشروط الممكنة لمراقبة مورد الماء والأراضي الخصبة المجاورة لها[9].

القصبة عبارة عن حصن كبير على شكل مضلع غير متساوي الأطراف خربت معظم أجزائه خاصة من الجهة الشمالية والشرقية ومدعم بأبراج من الجهتين الغربية والجنوبية.

وسور القصبة مبني بالتراب المدكوك بطريقة "الطابية"[10] بخليط من التراب والأحجار الصغيرة مع نسبة متوسطة من الجير. يتخلله ثقب العوارض التي كانت تستعمل في عملية بنائه ويصل سمكه إلى مترين تقريبا وتعلوه شرفات مسننة ودورية أو ممر للجند عرضها متر وخمسة وعشرون سنتيم.

ويظهر أن القصبة كانت تضم كثيرا من الأبراج يصل علوها إلى 15 متر، وهي في أغلب الأحيان مربعة الأشكال وبارزة على السور بأربعة إلى خمسة أمتار وهي فارغة من الداخل مما يفسر أنها كانت تستعمل كسكن للجنود.

ومن خلال التحريات الأثرية تبين لنا أن القصبة كانت تحتوي على بابين رئيسيين على الأقل الأول وسط الجهة الشرقية كان يفتح في اتجاه مدينة وجدة وتلمسان والثاني كان يفتح في الجهة الغربية في اتجاه مدينة تازة وفاس.

أما الفضاء الداخلي للقصبة فلا توجد فيه معالم تاريخية إلا من بعد البيوت المهدمة والملتصقة بالسور الجنوبي.

والقصبة رغم أهميتها التاريخية والعمرانية لم تحظ بأي إصلاح ولا ترميم، بل أصبحت عرضة للتخريب سواء بسبب المجاري المائية التي تنخر أجزائها السفلى أو تدخل الساكنة لاستغلال مساحتها لصالح أراضيهم الزراعية.

5 قصبة مرادة:

تعتبر من أهم الاكتشافات الأثرية التي تناولتها التحريات الأثرية بالمنطقة الشرقية للمغرب.

تقع القصبة على الضفة اليمنى لوادي ملوية على بعد حوالي 15 كلم من مدينة كرسيف وهي الآن في حالة خراب كبير.

قصبة مرادة (ارشيف الصغير مبروك)

أسست القصبة من طرف الدولة المرينية كما هو الشأن بالنسبة لقصبة كرسيف غربا وقصبة تاوريرت شرقا، وذكرت في المصادر التاريخية الوسيطية، ونظرا لأهميتها الاستراتيجية والعسكرية فقد اتخذها وانزمار بن العريف بن يحي زعيم قبائل السويد معقلا له.

---

[9] ـ *للمزيد من التفاصيل انظر الصغير مبروك، مادة صاع، معلمة المغرب، مطابع سلا، العدد 16 2002، ص 5467*

[10] ـ *عن البناء بالطابية بالجهة الشرقية انظر:*

Saghir Mabrouk ; l'architecture en terre au Maroc oriental, in architecture de terre en méditerranée, coordination Mohamed Hamam, Faculté de lettre Rabat, 1999,p : 265-271

قصبة مرادة في حالة خراب (ارشيف الصغير مبروك)

وقد عرفت هذه القصبة نشاطا عسكريا ابتداء من سنة 1385/759 إذ تعرضت لعدة حملات عسكرية عنيفة من طرف دولة بني عبد الواد وأعيد بنائها إلى إن خربت بشكل كبير على أيديهم سنة 785 هـ/ 1383 م .

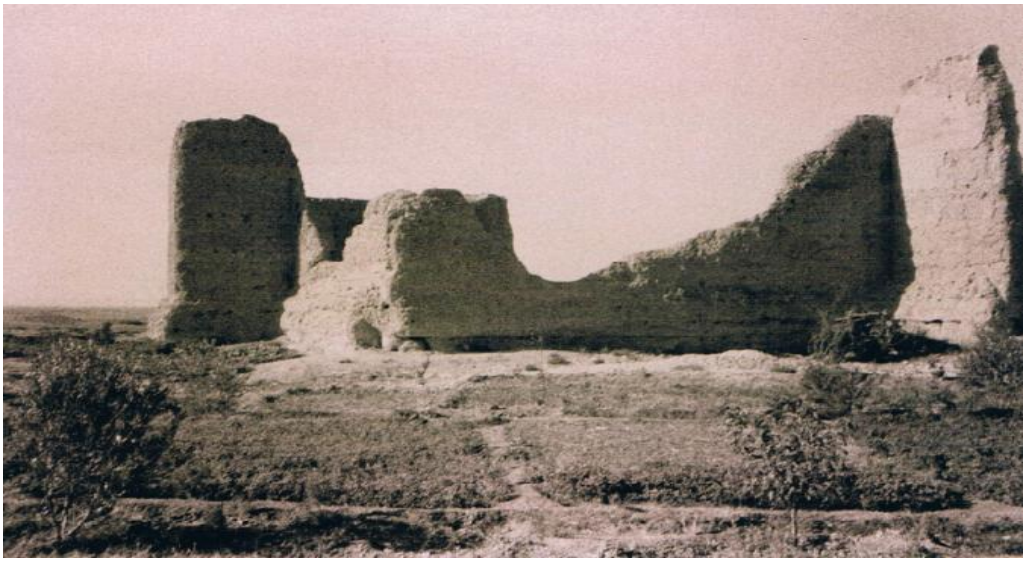

أحد أبراج قصبة مرادة (ارشيف الصغير مبروك)

والقصبة عبارة عن أسوار ضخمة من التراب المدكوك (الطابية) يصل سمكها إلى 3 أمتار مدعمة بأبراج ضخمة غير متساوية الأطراف، أما بابها الرئيسي فكان مفتوحا من قبل على الجهة الجنوبية الغربية. أما الفضاء الداخلي للقصبة فهو فارغ تماما من أي بناية إلا من ثلاث مخازن للحبوب عبارة عن مطامر يصل قطر فتحة كل واحدة منها إلى ثلاثة أمتار ونصف وعمقها إلى أكثر من ثلاثة أمتار.

6 قصبة امسون

جزء من أسوار قصبة امسون (ارشيف الصغير مبروك)

سميت هذه القصبة باسم الوادي التي تشرف عليه وهو وادي امسون الذي ذكر في المصادر التاريخية الوسيطية ومعناه الماء المالح وتعتبر هذه القصبة أو القلعة من أهم القصبات التاريخية بالمغرب الشرقي إذ تبعد عن مدينة تازة شرقا ب 25 كلم فقط.

تتميز القصبة بموقع استراتيجي مهم فبالإضافة، على اشرافها على الوادي فهي تراقب الطريق الرابط بين تازة ووجدة أو ما كان يطلق عليها قديما بطريق السلطان. كما اتخذها السلطان مولاي إسماعيل في القرن 17 م قلعة هامة لتهدئة القبائل الثائرة وحماية الطرق التجارية بين تازة وتلمسان وتازة ومليلية المحتلة. وتعتبر هذه القلعة أيضا من القلع التي شيدها السلطان مولاي إسماعيل خلال القرن 17 م والبالغ عددها أكثر من 71 قلعة عبر أرجاء البلاد. وتقطن هذه القصبة منذ نشأتها فخدة ولاد رحو المنتمية لقبيلة هوارة التاريخية التي نجد لها جذورا بليبيا ثم في شمال المغرب وجنوبه.

كما لعبت القصبة إلى جانب دورها العسكري دورا تجاريا مهما إذ كان يعقد بها سوق كبير للمواشي يحج إليه التجار من كل النواحي وخاصة من تازة ووجدة ونواحيهما ظل نشيطا الى فترة قريبة من القرن الماضي.

وقد ذكرت قصبة امسون في مجموعة من المصادر التاريخية في سياق الأحداث التي عرفتها المنطقة خلال القرن السابع عشر الميلادي دون تقديم أي وصف دقيق لها رغم أهميتها المعمارية والعسكرية. فقد جاء عند الزياني في كتابه البستان الظريف[11] " ولما نزل المولى إسماعيل بوادي أمسون أمر أن تبنى بها قلعة وأنزل بها مائة من الخيل من عبيده بأولادهم وقيد عليهم منصور ابن الرامي، أنزله بتازة في ألفين وخمسمائة من العبيد... "

كما عرفت القصبة زيارة مجموعة من الرحالة الأوربيين الذين زاروا المنطقة في مهمات استخبارية وتجسسية تمهيدا لاحتلالها من طرف الاستعمار الفرنسي كما هو الشأن لدمينكو بديعة الملقب بالحاج العباسي الذي زارها سنة 1803 م.

حاليا القصبة تعرف خرابا كبيرا وقد هدمت أجزاء مهمة منها كما عرف فضاءها الداخلي نفس المصير خاصة بيوتها ودكاكينها التي كانت تعرف من قبل نشاطا تجاريا مهما.

وتشكل القصبة تخطيطا غير متساوي الأضلاع(190,75 x 196,5) تدعم أسوارها ثمانية أبراج مستطيلة الشكل، أما بابها الرئيسي المفتوح في الجهة الشرقية فهو عبارة عن مدخل ذو ثنية واحدة وقد هدمت معظم أجزائه.

وقد بنيت الأسوار التي يصل سمكها إلى مترين بالتراب المدكوك (الطابية) لكن قلة الجير المستعمل بها اضعف من تماسكها وصلابتها وجعلها عرضة للتقلبات المناخية وبالتالي إلى الخراب، وتعلو هذه الأسوار التي يصل ارتفاعها إلى عشرة أمتار شرفات وممر للجند يصل عرضه إلى 60 سنتمتر.

لن يسعنا هنا المجال لتقديم كل الأبحاث الميدانية التي قمنا بها والتي لازلنا نقوم بها اعتمادا على المصادر التاريخية و الأبحاث الأثرية بالجهة الشرقية بالمغرب، و هي أول دراسة تاريخية واثرية تهم المرحلة الاسلامية لهذا المحور الاستراتيجي و التاريخي بين مدينتي تازة و وجدة بالجهة الشرقية.

[9]- الزياني ،(ابو القاسم) البستان الظريف في دولة اولاد مولاي الشريف تقديم وتحقيق ذ رشيد الزاوية القسم الاول الرباط 1992 ص 164.

REFERENCES

[1] Saghir Mabrouk ; La ville de Taza : Recherches d'Histoire d' Archéologie Monumentale, et Evolution Urbaine ; Thèse de Doctorat de l'Université de la Sorbonne Paris I ; IV volumes 1992.

[2] Saghir Mabrouk ;l'apport des textes juridiques dans l'éclaircissement de l'histoire urbaine de la ville de Taza in l'urbanisme dans l'occident musulman au Moyen Age, aspect juridique, Casa de Velasquez, Madrid 2000, pp : 233-242.

[3] مبروك الصغير، التطور العمراني للمدينة العتيقة لتازة : دراسة تاريخية واركيولوجية ضمن تازة وباديتها من خلال الارشيفات الاجنبية والتراث الوثائقي المحلي تنسيق لحسن اوري مطبعة انفو برانت فاس 2014 ص: 85-106

[4] الخريطة الجغرافية للمغرب، إنتاج شركة اديسوفت، الأحباس، الدار البيضاء، بدون تاريخ.

[5] الصغير مبروك ، المسجد الاعظم الموحدي بتازة، ضمن ندوة الذكرى الالفية للمسجد الاعظم بسلا، نشر وزارة الاوقاف والشؤون الاسامية مطبعة الكرامة الرباط 2004 ص155-.166

[6] Maslow (b) ; les mosquées de Fès et du Nord du Maroc . Pub de I.H.E.M, LIV Paris

[7] Terrasse (H) ; La grande mosquée de Taza –Pub de I. H.E.M XXXI, éd d'Art et d'Histoire Paris

[8] أبو القاسم ابن حوقل، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979 ص 83.

[9] أبوعبد الله البكري: المعرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، مكتبة أميركا والشرق، 1965.

[10] الشريف الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة 1994.

[11] مبروك الصغير تاوريرت من خلال المصادر التاريخية والمواقع الاثرية، ضمن ندوة تاوريرت، واد زا القصبة، التاريخ والمجال والتنمية، نشر فريق البحث في الكتابة التاريخية وتقنيات الاعلام والتواصل و تنسيق عبد الحميد الصنهاجي ومحمد استيتو، مطبعة الرباط، 2008، ص: 11-26

[12] ابن أبي زرع الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس دار المنصور الرباط 1972 ص385.

[13] الحسن الوزان، وصف إفريقيا ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الرباط 1980 ص 272.

[14] الصغير مبروك، مادة صاع، معلمة المغرب، مطابع سلا، العدد 16 2002، ص 5467

[15] Saghir Mabrouk ; l'architecture en terre au Maroc oriental, in architecture de terre en méditerranée, coordination Mohamed Hamam, Faculté de lettre Rabat, 1999,p : 265-271

[16] الزياني ،(ابو القاسم) البستان الظريف في دولة اولاد مولاي الشريف تقديم وتحقيق ذ رشيد الزاوية القسم الاول الرباط 1992 ص 164.